هذه المرة لان القراقع والخراخر هي مقومات التدرُّن فمتى ثبت وجودها ثبت وجوده بلا اشكال ولاني شاهدت مع جميع رفقائي في المستشفى الفرنسوي امثلة متعددة من الصوت النفخيّ في إبان الملاريا ولكننا لم نشاهد ولا في واحدٍ منها ما يذكرهُ من امر هذه القراقع والخراخر

أقول والمسئلة معروضة على انظار سادتنا الاطباء ولعلهم لا يبخلون علينا بالجواب بما يكون فصل الخطاب

اسبريدون ابو الروس
من طلبة الطب في المكتب الفرنسوي
بيروت

تطعيم الجدري اكتشاف شرقي

الشائع الذي يتناقلهُ الكتَّاب الآن ان الطبيب ادورد جنَّر الانكليزي هو المكتشف الاول لتطعيم الجدري وأَنَّ الامر على خلاف ذلك فان الصينيين استعملوا التطعيم منذ القرن السادس والبراهمة استعملوهُ منذ عهد قديم جدًّا وكانوا يطعمون السليم بمادة مستخرجة من بثرة الجدري نفسهِ في بداءة اليوم الثامن. وشاعت هذه الطريقة في بلدان المشرق والظاهر انها لم تبلغ بلاد العرب الاَّ بعد زمن الرازي وابن سينا لانهما لم يشيرا اليها في ما كتباهُ عن هذا المرض. والرازي كتب كتابة باحث مدقق وخالف اطباء عصرهِ في طريقة العلاج الَّتي اشار بها ولم يكتفِ بالبحث الطبي المجرَّد بل قدَّم عليهِ بحثًا تاريخيًّا استدلّ منهُ على ان مرض الجدري كان معروفًا عند اليونان فقال ان جالينوس ذكرهُ في المقالة الثانية من كتابهِ المعروف بقاطاجانس وفي المقالة الرابعة عشرة من النبض وفي المقالة التاسعة من منافع الاعضاء وفي المقالة الرابعة من كتاب طيماوس. الاَّ ان استاذنا الدكتور فان ديك خطَّأَ الرازي في ذلك كلهِ ونسب سبب الخطإِ الى الذين ترجموا هذه الكتب فالكتاب الاول ترجمهُ حبيش بن الحسن الاعسم تلميذ حنين بن اسحق في عصر الخليفة المتوكل والكلمة الَّتي ترجمها بالجدري موجودة في كتب بقراط وارسطو وديوسكورس وقد فسَّرها جالينوس نفسهُ بانها درنة صلبة تظهر في الوجه وفيها مادة جامدة. فهي اذًا ما يعرف

يجب الصبا او الاكنة . والكتاب الثاني ترجمهُ حبيش ايضاً والكلمة ألّتي ترجمها بالجدري معناها القوباء كما فسرها جالينوس نفسهُ . والكتاب الثالث ترجمهُ حبيش ايضاً والكلمة ألّتي ترجمها بالجدري معناها النفاطات القوباويّة . والكتاب الرابع وهو شرح جالينوس على طيماوس افلاطون ترجمهُ حنين بن اسحق والكلمة ألّتي ترجمها بالجدري معناها القوباء . ولذلك فالرازي معذور في حكمهِ واللوم على المترجمين لا عليهِ لكن بحثهُ واستقصاءهُ يدلان على انهُ لو عرف التطعيم لما اغفل ذكرهُ

ومهما يكن من الامر فقد شاعت طريقة التطعيم بعد ذلك في الممالك الشرقيّة وبلغت بر الاناضول وبلاد الروم قبل القرن الثامن عشر . وفي سنة ١٧١٧ اتت السيدة ماري منتاغو زوجة سفير انكلترا في بلاد الدولة العليّة الى مدينة ادرنة فوجدت الجدري الشديد الوطأة في بلدان المغرب خفيف الوطأة جدًّا في تلك المدينة . وبعثت الى احدى صديقاتها برسالة مسهبة قالت فيها " اليكِ امرًا يجملكِ تودين المجيء الى هنا وهو ان مرض الجدري العام في بلادنا الشديد الفتك باهاليها لا يخشى شرهُ هنا لانهم اخترعوا لهُ علاجًا يسمونهُ التطعيم وعندهم عجائز صناعتهنَّ تطعيم الناس في شهر سبتمبر (ايلول) حينما تنخفض الحرارة فيتراسل الناس في ذلك الحين ويجتمع جميع الذين لم يتطعموا قبلاً فرقًا فرقًا في كل فرقة نحو خمسة عشر شخصًا او ستة عشر فتأتي العجوز بجوزة مملوءة بمادة من اسلم انواع الجدري وتخز العرق الذي يريد الشخص ان يتطعم فيهِ بابرة كبيرة فلا يتألم اكثر مما يتألم من خمش صغير . واليونانيون الكثيرو الخرافات يتطعمون في جباههم واذرعهم وصدورهم لكي تكون الطعوم الاربعة في شكل صليب ولكن ذلك وخيم العاقبة عليهم لانهُ تبقى ندبة مكان كل جرح من هذه الجروح . واما قليلو الاوهام فيتطعمون في ارجلهم او في مكان لا يظهر من اذرعهم . والاولاد الذين يتطعمون لا ينقطعون عن اللعب مدة الايام السبعة الاولى بعد التطعيم واما في اليوم الثامن فتصيبهم حمى فيقيمون في فرشهم يومين وفي النادر ثلاثة ايام ويظهر في وجوههم نحو عشرين او ثلاثين بثرة ولكنها تزول ولا يبقى لها اثر . ولا تمضي ثمانية ايام اخرى حتى يزول انحراف صحتهم تمامًا ويعودوا كما كانوا قبل ان تطعموا . ويتطعم الوف من السكان كل سنة . وقد اخبرنا السفير الفرنسوي ان الناس يعدون انفسهم بالجدري هنا كانهُ اكلة طيبة ولم يذكر ان واحدًا مات من التطعيم . وانا واثقة بصحة ذلك حتى انني عزمت ان اطعم ابني وساجتهد في اذاعة هذا الاختراع في انكلترا وسوف اكتب

عنهُ الى بعض الاطباء اذا عرفت احدًا منهم يفضل مصلحة الجمهور على مصلحتهِ الخاصة . ولكن الاطباء ينتفعون من مرض الجدري كثيرًا ولذلك لا يبعد انهم يقاومون من يسعى في ازالتهِ جهد طاقتهم . واذا عدت الى بلادي اصليتهم حربًا عوانًا وحينئذٍ ترين مني ما يرضيكِ من الهمة والبسالة "

وقرأ هذا الكتاب كثيرون في بلاد الانكليز ولكنهُ لم يطبع الاَّ سنة ١٧٦٢ اي لما كان عمر ادورد جنر اثنتي عشرة سنة

وكان الجدري في ذلك الحين من اشد الضربات على نوع الانسان . قال ماكولي المؤرخ انهُ كان يملأ دور الكنائس بجثث الموتى . والذين لا يميتهم يترك آثارهُ الشوهاء في ابدانهم فيستحيل بهِ الطفل مسخًا يقشعر بدن امهِ من رؤيتهِ ويتشوَّه بهِ وجوه الغانيات حتى يرتعد عشاقهنَّ من رؤيتهنَّ

واستدعت السيدة ماري منتاغو عجوزًا يونانية لتطعم ابنها فطعمتهُ وكان زوجها في بلغراد فكتبت اليهِ تقول " قد طعمنا الولد يوم الثلاثاء الماضي وهو الآن يلعب ويغني على جاري عادتهِ منتظرًا عشاءهُ واسألهُ تعالى ان يكون الكتاب التالي الذي اكتب بهِ اليك سارًّا كهذا الكتاب . ولم استطع ان اطعم البنت لان مرضعها غير مجدورة فان الذي لم يجدر تسري اليهِ العدوى من المطعم كما تسري من المجدور "

وفي اقل من سنة عادت هذه السيدة الى بلاد الانكليز مع زوجها وشرعت من وقتها في اذاعة التطعيم في مدينة لندن ولم تصادق الحكومة ومدارس الطب على ذلك الاَّ بعد ستين سنة لكن الشعب رأى نفع التطعيم واقبل عليهِ اقبالاً عظيماً . وقد كتب بعضهم سنة ١٧٣٤ يقول " ان انكلترا مديونة لهذه السيدة دينًا لا تقدَّر قيمتهُ بادخالها صناعة التطعيم وسعيها في اشاعتها في البلاد . وقد جربت التطعيم في اولادها اولاً وحسبها فخرًا ونجاحًا ان العائلة المالكة اقتدت بها . ولا بدَّ من انها تفرح فرحًا يفوق الوصف حينما تفتكر بالالوف الكثيرين الذين ينجون كل سنة من مخالب الجدري بواسطة التطعيم حينما ينتشر في البلاد كلها . وهذا الخير عميم النفع دائم الجدوى حتى ان كل المبرات والخيرات التي يطبل بها الناس ويزمرون لا تحسب شيئًا مذكورًا في جنبهِ "

ولم يصدق الناس قول هذه السيدة ولم يعملوا بهِ في اول الامر بل حسبوها مختلة الشعور ونسبوا اليها الكفر والتدجيل والاعتداء على اعمال العناية الالهيَّة وظلوا يقاومونها ويرشقونها بمثل هذه التهم خمسين عامًا . واخيرًا خطر على بال زوجة ولي عهد انكلترا

ان تطعم بعض اولاد الفقراء فلما رأت ان الطعم وقاهم الجدري طعمت اولادها ايضاً وكأنها ختمت على صحة التطعيم بخاتم الملك وللحال اقرت مدرسة الاطباء على صحته

وتوفيت السيدة ماري منتاغو سنة ١٧٦٢ وكتبوا على قبرها السطور التالية بعد وفاتها بسبع وعشرين سنة

" تذكار للشريفة السيدة ماري ورتلي منتاغو ألّتي وفّقها الله الى جلب طعم الجدري من بلاد الاتراك الى هذه البلاد بعد ان اقتنعت بفائدته وجربته اولاً في اولادها ثم اشارت على اصدقائها ان يجربوه . وبعملها ومشورتها خفّت وطأة هذا الداء ونجونا من مخاطر هذا المرض الخبيث . وقد انشأت هذا التذكار هنريتا انج ارملة ثيودر وليم انج وابنة السرجون رتلي تخليداً لذكر هذا العمل المبرور واعترافاً بالشكر والفضل وذلك سنة ١٧٨٩ للميلاد "

والقبر من الرخام وعليه تمثال عذراء بديعة الجمال تبكي على رفات منقذتها وهذه الرفات في حقّة عليها حروف مقتطعة من اسم السيدة ماري ورتلي منتاغو

ولم تعش السيدة ماري حتى ترى ثمرات التطعيم يانعةً في البلاد الانكليزية وفي اوربا كلها ولكنها قضت نحبها واثقة انها علّمت اهل بلادها اسلوباً يخفف وطأة الجدري ويزيل آثاره الشنيعة . وقام كثير من الاطباء واشاعوا هذه الصناعة وكانوا يمزجون الحقائق بالاوهام على ما قضت به عوائد تلك الايام ومنهم دمسدايل الذي شاع صيتهُ في تطعيم الجدري حتى بلغ البلاد الروسيَّة فدعتهُ ملكة الروس ليطعمها ويطعم ابنها فاتى روسيا وطعّم اولاً بعض تلامذة المدرسة الحربيَّة لكي ترى الملكة فعل الطعم بهم قبل ان يمتحن في نفسها وفي ابنها ثم تطعمت هي وابنها وسمحت لدمسدايل ان يستخرج الطعوم منها ويطعم بها بعض امراء الروس ثم اعطتهُ عشرة آلاف جنيه وقطعت لهُ خمسمئة جنيه في السنة وانعمت عليه بلقب بارون وجعلتهُ طبيباً لها

وكثر بحث الاطباء حينئذٍ في حقيقة الطعم وكيفيَّة " تبريده " " وطبخه " " وتقويته " حسبما كانوا يقولون وفي كيفيَّة انتقال العدوى من المصاب الى السليم . وفي ذلك الحين ظهر ادورد جنر وكان عمرهُ ١٢ سنة حينما توفيت السيدة ماري منتاغو وكان مغرماً بالعلوم الطبيعيَّة من نعومة اظفاره وتلمذ للشهير جون هنتر الفسيولوجي الكبير وبقي في بيته سنتين وكان قبل ذلك تلميذاً عند جرّاح يتعلم منهُ صناعة الجراحة ورأى فتاة حلّابة وسمعها تقول انها لا تصاب بالجدري لانها أُصيبت بالجدري البقري

وسمع مثل هذا القول من غيرها ايضاً فقال في نفسهِ لعل سم الجدري البقري اقل من الجدري العادي وكرَّر هذا القول على مسامع استاذهِ يوحنا هنتر فقال لهُ لا تقتصر على القول بل جرِّبهُ بالعمل . فعمل بقولهِ بعد ان تردَّد في الامر طويلاً ولقي من تهكم رصنائهِ الاطباء ما يضعف العزائم ويثبط الهمم . وكان داء الجدري البقري نادرًا جدًّا وقلما يُظهرهُ من يصاب بهِ ولذلك مرَّت السنون على جنر قبلما تمكن من التجربة

وجرب التطعيم بمادة الجدري البقري اول مرة في غلام عمرهُ ثماني سنوات في الرابع عشر من شهر مايو سنة ١٧٩٦ وذلك انهُ نزع جانباً من المنا من يد فتاة حلابة مصابة بالجدري البقري وادخلها في جرحين صغيرين في يد الولد فسار الطعم في بدنهِ سيرهُ القانوني . وفي الصيف التالي طعَّمهُ بمادة جدريَّة عاديَّة فلم يصب بالجدري فثبت من ذلك ان الجدري البقري قد وقاهُ من الجدري العادي

ومرَّ على جنر خمس وعشرون سنة قبلما امكنهُ ان يثبت هذه الحقيقة . ولا نطيل الكلام الآن في كيفيَّة اثباتها ولا في ما اعترضهُ من المصاعب ولا في ما لقيهُ من النجاح اخيرًا ولا في ما نتج عن هذا الاكتشاف من الخير العميم لنوع الانسان وربما افردنا لذلك كلهِ مقالة أُخرى في وقت آخر وحسبنا الآن ان نقول ان اكتشاف باستور الشهير في وقاية المواشي من داء الجمرة الخبيث ووقاية الناس من داء الكلب مبني على اكتشاف جنر لطعم الجدري كما اعترف باستور نفسهُ امام اكاديمية الفرنسوية . واكتشاف جنر مبني على ما اشاعتهُ السيدة ماري منتاغو في بلادها وهذا منتبس عن المشارقة كما تقدم . فكان العلم بالامراض المعدية والوقاية منها سلسلة طرفها الاول في المشرق وتجارب اهلهِ وطرفها الاخير في المغرب وتجارب علمائهِ ومباحثهم المدققة . ويسرنا ان طرفي هذه السلسلة قد التقيا الآن بدخول اهالي يابان في ميادين العلوم الطبيعيَّة وبحثهم في طبائع الميكروبات حتى ان المكتشف لطعم الدفتيريا الذي ذاع في هذه الايام هو من اليابانيين وهو اول من اكتشف ميكروب التتانوس بطريقة علميَّة تصلح لاكتشاف ميكروبات اخرى . وحبذا لو كان لنا نحن ابناء مصر والشام الذين دخلوا ميادين العلم قبل اليابانيين حظٌّ من هذه المكتشفات البديعة بدلاً من اقتصارنا على تقليد الاوربيين او على التنديد بهم لكننا نرجو ان ندرك في يومنا وغدنا ما قصرنا عنهُ في امسنا حتى يكون افتخارنا بقولنا "تطعيم الجدري اكتشاف شرقي" افتخارًا حقيقيًّا لا نخجل من تسطيرهِ في بطون القرطاس ولا نخشى ان يقال لنا نعم الجدود ولكن بئس ما ولدوا